تنوع الدلالة الحركية في التعبير القرآني

م.م. عبد الحي العبادي

المديرية العامة للتربية- البصرة

فحوى البحث

بحث استدلالي يعرض للتنوع في الأفعال التي تدل على معاني الحركة والتي ورد كثير منها في القرآن الكريم مما يظن القارىء انها بمعنى واحد من مثل: انفجر وانبجس والتي هي في ترجمتها الى لغة اخرى لايختلف معناها. ويثبت البحث أن دلالة هذه الافعال، وإن بدت متشابهة، فانها تختلف. والحاكم في ذلك هو: السياق الذي يشير الى إعجازية الانتقاء.

جاء البحث على مبحثين وخلاصة وقائمة بأهم المصادر والمراجع. فقد عرض في المبحث الأول: الافعال المرتبطة بالارض. اما المبحث الثاني، فللأفعال المرتبطة بظاهرة الليل والنهار.

مقدمة:

امتازت لغة القرآن الكريم بمظاهر أسلوبيّة متنوّعة ذات مسالك دقيقة ومتأنقة؛ لما تتمتع به ألفاظه من جزالة وقوّة في أداء المعنى، مضافاً إلها الانسجام التام ما بين الشكل والمضمون وإيحائيّة الدلالة التي تؤدّيها ألفاظه في السّياق القرآنيّ بطريقة محكمة لا تُبارى.

التنوّع في أفعال الحركة بإبدال لفظ مكان آخر من سياق إلى آخر قد يبدو متشابهاً[1]، ولكنّ المناسبة في انتفاء الألفاظ والتلاؤم المنسجم ما بين السّياق وإيحائية الدلالة في الفعل هو الحاكم في النصّ المتفرّد في أداءاته التعبيريّة، زيادة على الجانب الصوتي وماله من قدرة في تعزيز حركة المشاهد ذهنياً، ولما للصوت والمعنى من تلازم دائم، فقد وظّف التعبير القرآنيّ جرس المفردات بإيحائها الذي يُلقي بظلاله على المعنى قبل مدلولها اللغويّ[2].

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ١/ ١٣٠.

(٢) ينظر: التعبير الفنّيّ في القرآن الكريم، د. بكري الشيخ أمين: ١٨.

المبحث الأول:

الأفعال المرتبطة بالأرض:

إنَّ تنوّع الأفعال وانتقاءها من أبرز المسالك التعبيريّة التي جاءت تحمل ملامح فنّيّة وجماليّة في محيط عناصر الطبيعة الصامتة التي ارتبطت فيها أفعالذات بُعدٍ حركيّ، ولما لها من فروق دلاليّة وملاحظ دقيقة تُبعدُها عن دائرة الترادف بتساوي الدلالة فيها ومن هذه الأفعال: (انفجر)، و(انبجس) في الآيتين الكريمتين:

- قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سورة البقرة: ٦٠].
- قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[سورة الأعراف: ١٦٠].

وكلّ من الانفجار والانبجاس يحمل دلالة التشقّق[٣]، وهناك من يذهب إلى أنّ الانبجاس هو انفجار[٤]، قال العجاج[٥]:

وانحَلبتْ عَيْناه مِن فَرْط الأسى
وكَيْفَ غربي دالجٍ تبجّسا

المتأمّل في السّياقين يمكن أن يلحظ الفارق الدلاليّ ما بين فعلي الحركة (انفجر)، و(انبجس) وكلاهما يُمثّلان حركة الماء عند خروجه من الحجر الذي يُعدّ مكوناً من مكونات الطبيعة الأرضيّة، وقد رصد بعض المفسرين الفارق الدلاليّ ما بين الفعلين من أنّ الأوّل يدلّ على خروج الماء بكثرة، والثاني: قليلاً كأن يسيل سيلاناً[٦]، و((لأنّ الانبجاس: هو انفجار إلّا أنّه لا يمتنع أن يكون أوّله ما ينبجس كان قليلاً ثم صار كثيراً، حتى صار انفجاراً))[٧].

هذا الملمح الدلاليّ قد يعود لمركزيّة الدلالة في الفعلين (فجر)، و(بجس) الدالة على التشقّق، ولكنّ سعة الأفق الدلاليّ في الفعل (فجر) أعطته دلالة الاتساع والكثرة، وهي أهم وأخصّ من دلالة (بجس)، التي حملت معنى الضيق والقلّة[٨].

فعبّر عن خروج الماء من الحجر في سياق سورة البقرة بقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، فالانفجار جاء في سياق المنّة على بني إسرائيل بعد جحدهم وتيههم، فجاء التعبير بالانفجار ((الذي يدور معناه على انشقاق فيه سيلان وانبعاث مع انتشار واتساع وكثرة، ولما لم يكن سياق الأعراف

(٣) ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري: ١٠/ ٥٩٩ (بجس)، و١١/ ٥٠ (فجر).
(٤) ينظر: معاني القرآن الكريم، النحاس: ٣/ ٩٢، والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٤٧ (بجس)، وأساس البلاغة، الزمخشري: ١/ ٤٦ (بجس).
(٥) ديوانه: ١/ ١٨٥.
(٦) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ١/ ٢٧١، وأسرار التكرار في القرآن، الكرماني: ٧٤، وتفسير الرازي: ٣/ ١٠٣.
(٧) التبيان في تفسير القرآن: ١/ ٢٧١.
(٨) ينظر: تفسير الرازي: ٣/ ٩٦.

الامتنان عبّر بالانبجاس الذي يدور معناه على مجرد الظهور والنبوع))[9].

يبدو أنّ طلبهم الماء جاء بعد أن عصف بهم الجفاف واجتاح أراضيهم، فعزّ على دوابهم، وندر حتى لشربهم، فحلّ بهم الجدب حينها واستسقى موسى عليه السلام لقومه، فكان طلب الماء في سورة البقرة من موسى عليه السلام، وكانت الإجابة من الله سبحانه وتعالى له بالماء الكثير الوفير ﴿فَانفَجَرَتْ﴾، والاستجابة له بعد أن استسقاه قومه وطلبوا منه الدعاء، فكانت الإجابة بالماء القليل[10]، فناسب تعظيم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام وتكريمه في سورة البقرة، لأنّ الطلب صدر منه خلاف الحال في سياق سورة الأعراف.

لعلّ في بقاء إمساك السماء عن المطر وجدب الأرض، جعل من بني إسرائيل يلتجؤوا إلى الله بوساطة موسى عليه السلام ليُستنزل به المطر، فتجلّت المعجزة بأبهى صورها عندما أعطاهم ما سألوا ولكن من الأرض المتصحّرة نفسها، ليكسر حاجز التوقّع فيهم، فالمتبادر إلى الذهن من أن طلب الماء سيكون عن طريق السماء ونزوله منها، وهذا الطلب أمرٌ معهود ومعروف حين يُلتجأ إلى أولياء الله سبحانه وتعالى[11]، وليريهم موسى عليه السلام قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، بعد أن تابوا وأنابوا إليه، فتجلّت هذه القدرة في مسلك دقيق مفاده أنّ الماء كان قريباً منكم وبين أيديكم من الأرض لا السماء؛ ولن تنالوه إلّا بالتوبة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

ليس هذا فحسب وإنّما حَدَثُ الانفجار شكّل جانباً إعجازيّاً مركباً حين أعطى موسى عليه السلام القدرة بتحويل الحجر إلى مصدر إروائي له معنى من التكريم له وبيان فضله عليهم.

(٩) نظم الدرر: ١/ ٤٠٥.

(١٠) ينظر: أسرار التشابه الأسلوبيّ في القرآن الكريم، د. شلتاغ عبود: ٦١.

(١١) ينظر: لاميّة أبي طالب رضي الله عنه بحق نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله في ديوانه: ٧٥:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة الأراملِ
يلوذ به الهلاك من آل هاشمٍ
فهم عنده في نعمة وفواضلِ

ويمكن أن نلحظ قوّة الدلالة ما بين الفعلين الحركيين (فجر)، و (بجس)، عن طريق ما تملكه الألفاظ من قوّة تتوافر في بيئتها الصوتيّة، فتؤدي المعنى المطلوب[١٢]، فنجد التعبير القرآنيّ يمازج بين الأصوات المجهورة والمهموسة، ليعبر عن الجريان القليل للماء في سياق الفعل ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾[١٣]، إذ((ينساب بهدوء، وحاكت أصواتها هذا المعنى، إذ خففت رخاوة النون الدالة على الانبثاق وانسيابيّة السين الدالة على الانزلاق من شدة الباء والجيم والتاء، وتفاعلت جميعها لتصوير المعنى بدقة، ولاسيّما صوت السين الذي يجسد سهولة جريان الماء))[١٤]، في حين نجد شدّة الجيم الدالة على القوّة واجتماعها مع الراء؛ لما في الراء من تكرار عند نطقه[١٥]، تنسجم انسجاماً تاماً مع دلالة ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، وحركة الماء المنبعث بدفق وقوّة، فضلاً عن أنّ مجيء فعل الحركة (انفجر) متماشياً في السّياق القرآنيّ مع القول: ﴿فَقُلۡنَا﴾، وفعل الحركة ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ مع الإيحاء﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾، ودلالة الأمر بالقول أكثر قوّة من الإيحاء.

زيادة على ذلك فإنّ سياق فعل الحركة الدال على الانفجار ختم في الآية السابقة بالفسق﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[سورة البقرة: ٥٩]، فكل من مادَّة (فجر)، و(فسق) تتفق دلالتها على معنى الخروج من محيط، فخروج الثاني إفسادي مميت إلّا أنّ الأولى خروج نفعي[١٦]، يبعث الحياة ويعطيها الديمومة والبقاء.

إنَّ صيغة (انفعل) ودلالتها على اللزوم، أعطت الفاعل نوعاً من المباشرة في إحداث الحركة التي توقفت علية، فلا يتعدى الفاعل[١٧]، وقد يُعطي الفعل في

(١٢) ينظر: البلاغة الصوتيّة في القرآن الكريم، د. محمّد إبراهيم شادي: ٢٨.

(١٣) ينظر: الدلالة الإيحائيّة في قصتي يوسف وموسى، هادي غالي الدخيلي (أطروحة دكتوراه): ٣٢.

(١٤) ينظر: نفسه: ٣٢.

(١٥) ينظر: ألفاظ الجمع والتفريق في القرآن الكريم، د. خميس عبد الله التميميّ: ٤٧، والبحث الدلاليّ في توجيه المتشابه اللفظيّ في القرآن الكريم: د. أحمد إبراهيم: ٥٣٨.

(١٦) ينظر: نظم الدرر، البقاعي: ١/ ٤٠٤-٤٠٥.

(١٧) ينظر: الكتاب، سيبويه: ١/ ٧٦، والفعل

الحالتين (انفجر)، و (انبجس)، فاعليّة حركيّة تقف عند حدّ المُحدِث حقيقةً أو مجازاً، فتخلع عليه دلالات حسيّة تتفاوت من ناحية الاستجابة في الحركة ومدى قوتها وتأثيرها الذي يرشح به السّياق، فيعضد من دلالة الفعل المركزيّة وهو يسلّط الضوء على الفاعل، خصوصاً إذا ما كان الفاعل يُعدُّ عنصراً من عناصر الطبيعة الصامتة، فيحمله على معانٍ مجازيّة تُسهم بمنح الحياة الشاخصة حركة متجددة[١٨].

زيادةعلى ما تحمل دلالة الفعلين الحركيين (فجر)، و(بجس) ودلالتهما التشقق مع ظهور شيء مصاحب لعمليّة الصدع، مما جعل هذين الفعلين ينمازان عن دلالة (الفتح)، و (الفرج)، و (الفجو)، و (الشق)[١٩].

قد يشترك الفعلان الحركيان بدلالة السرعة في الصدع والتشقق عن طريق دلالة (الفاء)، وحذف متعلقها والتقدير: فضرب فانفجر[٢٠]، وهذا الحذف ((للإيماء الى أنّ موسى عليه السلام لم يتوقّف في الامتثال))[٢١]، وإنَّما باشر بالذي أُمر به فكانت النتيجة مصداقاً للإجابة السريعة التي التقت مع دلالة التفجر في السرعة، أو الانبجاس الذي بدأ بطيئاً ثم أخذ يتسارع بكثرة الماء المتدافع.

إنَّ كُلًا من الانفجار أو الانبجاس جاء يشير إلى حالة الإغاثة للطالبين للماء، وقاية من الهلاك، فناسب سياق (الانفجار) شدّة الطلب وكثرته بعدد الاستجابة بما يوازي حاجتهم، بلحاظ تعدد العيون بعدد الاسباط ﴿ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ ﴾، وسياق الانبجاس الذي لم يكن منه بيان تعظيم المنّة وإنّما العبرة، فعبّر بمجرد النبوع والظهور.

لعلّ الإخبار عن الوصفين (فجر)، و(بجس) يُمثّل الحالة الأولى بظهور الماء بعد التشقق، كأن يكون قليلاً في بداية

زمانه وبنيته، د. إبراهيم السامرائيّ: ١٠٠.

(١٨) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٦٢.

(١٩) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، المصطفوي: ٩/ ٣٢ (فجر).

(٢٠) ينظر: تفسير أبي السعود: ١/ ١٠٦.

(٢١) زبدة التفاسير، الكاشاني: ٢/ ٦١٣.

الأمر ثم صار كثيراً[٢٢]، أو العكس بما يتناسب مع الحاجة إليه.

إنّ سياق فعل الحركة (انبجس) لم يرد فيه ذكر الشرب، بل الأكل ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ جاء اللفظ بما يدل على الحاجة الأقل، ومجيء الشرب في سياق (انفجر) جاء التعبير بما يؤدي الحاجة إلى الماء وهي في سياق الشرب أكثر ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الحاجة كانت إليه أشد[٢٣]، فناسبت دلالة التفجر السّياق الذي وردت فيه.

المبحث الثاني:

الأفعال المرتبطة بظاهرة الليل والنهار:

الليل والنهار من الظواهر الكونيّة التي حظيت بملامح فنيَّة وجماليَّة في التعبير القرآنيَّ، وفي مشهد لظاهرتي الليل والنهار تتجلّى الحركة بأدق عبارة وألطف إشارة لفعلي الحركة (أدبر)، و(عسعس)، حين يخيّم الظلام ويتدافع مع النور عند الصباح في (أسفر)، و (تنفس).

- قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [سورة المدثر: ٣٣].
- قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [سورة التكوير: ١٧-١٨].

الأدبارُ أواخر الشيء[٢٤]، وإدبار الليل حركةُ مُضيّهِ مصحوباً بالظلام[٢٥]، والإسفار في سياق الآية الكريمة دلّ على الإقبال المصحوب بالنور، فالسّفرُ: هو الكشف عن الغطاء ويكون في الأعيان[٢٦]، وكأنّ حركة الليل المدبرة تشير إلى العودة من حيث جاء وهي التي عززت من دلالة الانكشاف للصبح الذي أقبل بضيائه[٢٧].

(٢٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن: ١/ ٢٧١، وتفسير الرازي: ١٥/ ٣٦.

(٢٣) ينظر: التعبير القرآنّي، د. فاضل السامرائيّ: ٢٩٦.

(٢٤) ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري: ١/ ٢٧٧ (دبر)، والمفردات في غريب القرآن: ١٧١ (دبر).

(٢٥) ينظر: تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، القمي: ١٤/ ٢٦، وتفسير نور الثقلين: الشيخ الحويزيّ: ٥/ ٥١٨.

(٢٦) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٢٣٩ (سفر).

(٢٧) ينظر: نظم الدرر: ٢١/ ٦٨.

الإدبارُ نقيض الإقبال، وعندما يتعلق بالزمن يُعبّر به عن آخر الأوقات[٢٨]، بحركة امتدادية للزمن الذي شارف على الانتهاء، ما ناسب القسم بأواخر الليل، لكونه مقدمة استقبال نور الصبح ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾، زيادة على ما له من فضل كبير حال العبادة[٢٩]، ولا يخفى على صاحب النظر ما للطباق من جماليّة في تداعي الحركة إدباراً وإقبالاً[٣٠]، فلا تكاد تهدأ أو تنتهي الحركة، لاستمراريّة الحدثين الذي ينتج عنه تعاقب الأيام ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾.

وتتّفق دلالة الفعل (أَدْبَرَ) في سياق سورة المدثر مع دلال الفعل (عَسْعَسَ) التي وردت في التعبير القرآنيّ مرة واحدة[٣١]، وهي تحمل معنى الإدبار أيضاً[٣٢]، إلا أنَّ فعل الحركة (عَسْعَسَ) في التعبير القرآنيّ جاء وهو يحمل دلالة التضاد إقبالاً وإدباراً[٣٣]، وهذه الدلالة حملت ملامح جماليّة لمضمونيّة الحركة الوئيدة في الليل، فأعطت فسحة للتأمل عن طريق إعمال الفكر والوجدان ذهنيّاً ونفسيّاً، باستحضار صورة الليل عند تدافع الظلام فيه وهو مقبل[٣٤]، فيودِّع النهار؛ ليستلم زمام الوقت ويحدو به مدبراً إلى أن يستقبل الفجر، فيدبر مرة أخرى، بحركة تدافعيّة مستمرة مع النهار.

يبدو أنّ هناك تشابهاً دلاليّاً في حركة الفعل (عَسْعَسَ) والفعل (أَدْبَرَ) في الإدبار، إلّا أنّ الأوّل حمل ثراءً وقوّة عن طريق الجمع ما بين الإقبال والإدبار، فضلاً عن القيم الصوتيّة في بنية الفعل، فحرف (السين) المهموس تسيد هذا المشهد، وتكراره مع تقارب مخرجه مع (العين) لم يقدح بحُسن اللفظ وصفائه[٣٥]، وإنّما

(٢٨) ينظر: تهذيب اللغة: ١٤/ ١١٠ (دبر).
(٢٩) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٩/ ٤٦٢.
(٣٠) ينظر: أساليب البديع في القرآن، السيّد جعفر باقر الحسينيّ: ٢٨٩.
(٣١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ٤٦١.
(٣٢) ينظر: معاني القرآن، الفراء: ٣/ ١٣٠.
(٣٣) ينظر: تهذيب اللغة: ١/ ٧٨ (عسعس)، وتفسير الرازي: ٣١/ ٧٢، والدر المصون: ١/ ٧٠٦.
(٣٤) ينظر: مستويات السرد الإعجازيّ في القصة القرآنيّة، د. شارف مزاريّ: ١٨٧.
(٣٥) ينظر: في جماليّة الكلمة دراسة جماليّة بلاغيّة نقديّة، د. حسين جمعة: ٤٧.

حُسن التأليف فيه تجعل من الصعب أن يـؤدي لفظٌ آخر الوظيفة التي حملها في سياق الآية الكريمة.

والليـــل لا يَظْلم وإنّما يعسُّ بحركة متأنّية ويتخطّى مراحل الظلمـــة شيئاً فشيئاً قد تصل حدّ السكـون والهمود، ولكن التكرار المقطعي في (عس، عس) يعطي استمراريّة ونغماً إيحائيّاً لما في السين من صفير عزز من دلالة الحركة المستمرة فيـه[٣٦]، وكأنّه يتحرك بيده أو برجله، وهذه الصورة لا نجدها في فعل الحركة (أَدْبَرَ) الذي يحمل صورة مجردة لمن مضى جاعلاً ظهره شاخصاً حركيّاً للذي يريد اللحوق به ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [سورة الفرقان: ٦٢].

وحركة الإدبار عامَّة قد تكون بطيئة، أو سريعة بحسب السياق التعبيريّ الذي تأتي فيه[٣٧]، بوصفها آية من آيات الله في الكون ودليلاً على قدرته، ناسبت المشاهد الكونيّة ومشاهد القيامة في صـورة من صور الكفاح الرساليّ للنبيّ محمّدﷺ[٣٨]، فكانت العبرة بذهابه مصحوباً بإقبال النهار﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ الكاشف لظلام الشرك عن طريق الهداية.

جاء سياق سورة التكوير وفيه تعضيد قول الرسولﷺ، ووصفه بأوصاف تليق بمقامه الشريف ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [سورة التكوير: ٢٠-٢١]، فناسب مقام القسم للتعظيم ولتوقير النبيّﷺ، وهذا التلطّف والتكريم قد يحاكي مشهد التسلية لقلب النبيّﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾، وهذا التنفس ((عبارة عن خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل، فكأنّه مُتنفّس من كرب، أو متروح من همّ))[٣٩].

تحولت إشراقـة الصباح عن طريق

(٣٦) ينظر: أدبيّة النص القرآنّي دراسة جماليّة، مولود محمّد زايـد (أطروحة دكتوراه): ٢٣.

(٣٧) ينظر: أفعال الحركة الانتقاليّة الكليّة للإنسان في القرآن الكريم دراسـة دلاليّة إحصائيّة، عماد عبد الرحمن خليل شلبي، (رسالة ماجستير): ٣٠.

(٣٨) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٣.

(٣٩) تلخيص البيان في مجـازات الـقرآن، الشريف الرضي: ٣٦٠.

التشخيص ذاتاً عاقلة تتحرك وتتنفّس أنفاس النور بلحاظ الحياة والحركة التي تسري وتدبّ في كلّ حيّ[٤٠]، وهذه الصورة تفصح عن تبدّل المشهد السابق ذي الحركة الوئيدة لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾.

إنَّ التوافق الحركي في دلالة الفعل (عَسْعَسَ) وهو يدنو من النهار في أوّل الليل ويدبر عنه آخره[٤١]، قد توحي بتخصّص هذه الحركة في الوقت الذي يقترب من بزوغ الفجر، لأنّه الوقت الفاصل ما بين ظلمة الليل وإفصاح النهار بضيائه علاوة على ذلك سياق الآيات ورتابتها مع اتّفاق الفاصلة في (السين) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ فيشترك الفعلان (عَسْعَسَ) و (أَدْبَرَ) في وقتٍ واحد، ولكن لطافة التعبير وانسيابيّة السين وصفيرها في سياق سورة التكوير شكّلت ترويحاً نفسيّاً بتسليةٍ قلب النبيّ ﷺ؛ لأنّه ذُكِر فيها بأدقّ الأوصاف مع إيراد ألوان من المؤكدات المشفوعة بسياق القسم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [سورة التكوير: ١٩-٢١].

بهذا المعنى يكون السّياق القرآنيّ قنّن من دلالة الفعل (عَسْعَسَ) الضديَّة، وتخصيصها بوقت معين وهو ما ارتضاه الفراء (ت٢٠٧هـ)[٤٢].

الليل والصبح في كلا السّياقين اتّسم بطابع إنسانيّ تجلّى بأبهى صوره عند حركة الإدبار والعسعسة، ولا يخفى ما لفعل الحركة (تَنَفَّسَ) من معانٍ وظلال ((عند انشقاق الفجر الأوّل إلى حين طلوع الشمس أولاً فأولاً أشبه الأشياء بخروج النفس شيئاً فشيئاً))[٤٣]، الآية الكريمة برّزت جانباً مملوءً بالحياة والمفعم بالحركة بوصف الصبح كائناً حيّاً يتنفس بعد انتشار ضوئه، والتعبير بالتنفس لأنّه ((أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس))[٤٤].

تنفّس الصباح ما هو إلّا صورة

(٤٠) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٨٤٢.
(٤١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٥/ ٢٢٦.
(٤٢) ينظر: معاني القرآن، للفراء: ٣/ ١٣٠.
(٤٣) البرهان في إعجاز القرآن: ٤٤.
(٤٤) النكت في إعجاز القرآن، الرمانّي: ٩٠.

استعـــاريّة شاخصـــة لمعنى الظهور[٤٥]، تُعطي شعـوراً بالبهجة واللين لما بعد انجلاء الظلام ويبعث الحياة والحركة المتجدّدة، عن طريق الانقلاب الزمنيّ في ظاهرتي الليل والنهار، وتبعث في النفس حُبّ الجمال للطبيعة الباسمة المشرقة التي تُثير في النفس الشعـور بظلال النعومة وراحة النفس بها في الصبح من يقظـــة وحياة[٤٦].

الخلاصة:

- الدلالة الزمنيّة في الافعال ذات البعد الحركي المتعلّقة بالشمس والقمر، أخـذت جانباً حيويّاً ومتجدّداً عن طريق الصيغة المضارعة ممَّا أعطاها قوَّة إيحائيّة في إشارة إلى التدبير الإلهيّ المستمر. وجعلتها تأخذ بعدا إدراكيّاً واعياً في حركتها المستمرَّة وهذا الأمر جزء من اتساع الأفق الدلالي في هذه الأفعال.
- الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم وبوساطة أفعال الحركة، جاء منسجماً مع الإعجاز العلميّ الثابت في حركة الكون وعناصره ومظاهره، وتجلى هذا التوافق في دقة الاستعمال القرآنيّ، وانتقاء المفردات التي أنتجت صوراً ذات أبعاد إيحائيّة أسهمت في اتساع الدلالة القرآنيّة مقارنة بدلالتها في المعجم.
- الفاعل المرتبط بعناصر الطبيعـة في التعبير القرآنيّ، أعطى أفعال الحركة أبعاداً حسيّة ومعنويّة، وهذا الملحظ إن دلَّ على شيء، فيدلّ على سعة الأفق الدلاليّ لأفعال الحركة، ومع الطبيعة الصامتة بدا هذا الملحظ جليّاً، وهي تتنقل في سماتها الحركيّة بين الحقيقة والمجاز.

(٤٥) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازيّ: ١٨٦.

(٤٦) ينظر: جماليّات الصورة البصريّة في القرآن الكريم، سلام حديد رسن (أطروحة دكتوراه): ١٣٣.

ثبت أهم المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أساليب البديع في القرآن، السيّد جعفر باقر الحسينيّ، مؤسسة بوستان للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة، ط: الثالثة، ١٤٣٤هـ.

- أسرار التشابه الأسلوبيّ في القرآن الكريم، د. شلتاغ عبود، دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط: الأوّلى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، محمّد بن حمزة الكرمانيّ (ت٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، (د. ط)، (د. ت).
- ألفاظ الجمع والتفريق في القرآن الكريم، د. خميس عبد الله التميميّ، ديوان الوقف الشيعيّ-المركز الوطنيّ لعلوم القرآن، بغداد، ط: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
- البحث الدلاليّ في توجيه المتشابه اللفظيّ في القرآن الكريم، د. أحمد إبراهيم صاعد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ٢٠١٢م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشيّ (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، الشيخ حسن مصطفويّ، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ، طهران، ط: الأولى، ١٤١٧هـ.
- التعبير الفنيّ في القرآن الكريم، د. بكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٤م.
- التَّعبِير القُرآني، د. فاضل السامرائيّ، المكتبة القانونية، بغداد، (د. ط)، (د.ت).
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضيّ (ت٤٠٦هـ)، تحقيق: محمّد عبدالغني حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- تفسير أبي السّعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن

الكريم، لأبي السعود محمّد بن محمّد العمادي (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ط)، (د.ت).

- الدُّر المَصون في عُلوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف المعروف بالسَّمين الحلبيّ (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمّد الخَرّاط، ، دار القلم، دمشق، (د. ط)، (د. ت).
- الفعل زمانه وبنيته، د. إبراهيم السامرائيّ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنيّة، شارف مزاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.
- معاني القرآن الكريم، للإمام أبي جعفر النّحاس (ت٣٣٨هـ) تحقيق: الشيخ محمّد علي الصابونيّ، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط: الأُولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجّاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن البقاعيّ (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، (د. ط)، (د. ت).
- النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرمانيّ (ت٣٨٦هـ)، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمّد خلف الله أحمد، ود. محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط: الخامسة، ٢٠٠٨م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازيّ (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: د. أحمد حجازي السقّا، دار الجيل- بيروت، والمكتب الثقافيّ-القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

الرسائل والأطاريح:

- أدبيّة النص القرآنيّ دراسة جماليّة، مولود محمّد زايد البيضانيّ (أطروحة دكتوراه)، بإشراف: أ. د. حسن جبار الشمسيّ، كليّة التربية -جامعة

البصرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

- أفعال الحركة الانتقاليّة الكليّة للإنسان في القرآن الكريم دراسة دلاليّة إحصائيّة، عماد عبد الرحمن خليل شلبي، (رسالة ماجستير) بإشراف: أ. د. يحيى جبر، جامعة النجاح الوطنيّة- فلسطين، ٢٠١٠م.
- جماليات الصورة البصريّة في القرآن الكريم، سلام حديد رسن، (أطروحة دكتوراه)، بإشراف: أ. د. حسن جبار محمّد الشمسيّ، كليّة التربية - جامعة البصرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.